

## حول موقف طه حسين من الأدب الجاهلي\*

الحوار الذي أجرته الأخت فاطمه حناوي مع سعادة الأستاذ محمد حسين زيدان حول الأدب الجاهلي وموقف الدكتور طه حسين منه والمنشور في «أدب وأدباء» الرياض عدد ٤٤٧٧ تاريخ ٢٤/٨/١٤٠٠ هـ كان شيقاً، مما دفعني لكتابة هذه الكلمات مساهماً وفي نفس الوقت موضحاً رأيي حول أحكام الدكتور طه حسين التي أحدثت عند صدورها رجة في أوساط الأدب والأدباء.

إن الدكتور طه حسين عندما ألقى محاضراته الجريئة في تاريخ الأدب العربي على طلاب الجامعة الأهلية المصرية في العشرينات من هذا القرن الميلادي، ثم قام بجمع تلك المحاضرات سنة ١٩٢٦م ونشرها في كتاب سماه «الشعر الجاهلي» ثم أعاد طبعه سنة ١٩٢٦م بعنوان «في الأدب الجاهلي» مضيفاً بعض الزيادات، كان متأثراً بأفكار نولدكه وباسيه ومرجوليوت، وكان مرجوليوت قد نشر في يوليو سنة ١٩٢٥م، أي قبل إصدار طه حسين لكتابه بعام واحد مقالاً في المجلة الآسيوية الملكية عنوانه: «أصول الشعر العربي» تتضمن أفكار متطرفة ومغرضة تطعن في الشعر العربي وأصالته. ولم يمر وقت قصير على كتاب الدكتور طه حتى اكتشف ناقده،

(٥) نشر بملحق أدب وأدباء بجريدة الرياض عدد ٤٤٩٢ وتاريخ ٩/٩/١٤٠٠ هـ.

وكانوا كثيراً ، أن أفكاره حول الانتحال ، والتي زعم أنه توصل إليها بعد عمق تفكير وطول دراسة، كانت مطابقة تماماً لأفكار مرجوليوت ومن سبقه من المستشرقين، تلك الأفكار التي اتضح أنها هي الأخرى كانت ترديداً لأقوال ابن سلام من قبل ألف عام أو يزيد.

كان ابن سلام المتوفي سنة ٢٣٢هـ قد درس في كتابه (طبقات فحول الشعراء) قضية الانتحال بعمق، ولم يوثق من الشعر الجاهلي إلا ما أجمع عليه الثقات كأبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي وابن دريد الذين كانوا أعرف الناس بمقاييس النقد ومعاييره، وأهملوا في سبيل توثيقه كل ما روى عن المتهمين أمثال حماد الراوية وخلف الأحمر.

ومعنى هذا أن المستشرقين : نولدكه وباسيه وبروكلمان ومارسيه وأمثالهم، لم يزيدوا على ما قاله ابن سلام غير المبالغة في إنكار ما أجمع عليه الثقات، بل لقد اتخذوا من كتابه ذريعة ليقولوا: «إن كل شيء في الأدب الجاهلي غير موثوق به، فالتاريخ اعتباطي ونسبة الآثار إلى أصحابها مترجحة وموضوعة بصور تحكيمية.. إلى آخر ما قاله مارسيه» ثم جاء طه حسين ليقول: «إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منتحلة بعد ظهور الإسلام.. ولا أكاد أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جداً ولا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي» (في الأدب الجاهلي ص ٨١).

وقد قام بالرد على طه حسين وعلى ما اتبعه من فلسفة ديكارتيية عقيمة العديد من أدباء مصر منهم الاساتذة :— محمد لطفي جمعة (الشهاب الراسد) ومحمد الخضر حسين (نقض الشعر الجاهلي) ومحمد فريد وجدي (نقد كتاب الشعر الجاهلي) ومحمد الغمراوي (النقد التحليلي) وغيرهم، وكان ردّ الغمراوي أروع الردود وأعمقها.

ولمعرفة أن الدكتور طه حسين قد لزم السكوت المطبق بعد هذه الموجة من النقد والتنديد، وانصرف إلى تأليف وإصدار كتب أخرى، الأمر الذي جعل الكثير يتساءلون عن سبب سكوته، وقد أتيح لي في أواخر الستينات مقابلة الدكتور طه في فلتة بشارع الهرم عندما عينت عضواً مراسلاً لمجمع لغة العربية، وكان الدكتور طه رئيسه حينذاك، كما أتيح لي الاجتماع به خلال الدورة الخامسة والثلاثين للمجمع المنعقدة في يناير سنة ١٩٦٩، وفهمت من مذكراتي معه حول موضوع (الانتحال) وعلاقة لغة اليمن بالفصحى والتي قال سماحه الله أن التقارب بينها ليس إلا كالتقارب بين العربية والسريانية والعبرية، فهمت ندمه الشديد على ما أصدر من أحكام تسرعية.

ومما قلته للدكتور طه حسين رحمه الله وما نشرته قبل ذلك في أواخر ستينات الميلادية: إن الخطأ هو فيما يتعلق بمقارنة غويدي السبئية بالفصحى فالنقوش متقدمة على ظهور الشعر الفصيح بمائتي عام تقريباً، وأن حكم الأدب في جنوب الجزيرة كحكمه في شمالها، ففي كليهما كان هناك نثر، وكان هنالك خطباء وقصاصون، وأنهم ما كانوا يكلمون ولا عجماً لا يتكلمون، والا فكيف قامت حضارتهم وسارت تجارتهم وتطورت لغتهم حتى صار لهم ذلك المكان الرفيع والشأو الراقي، فن المؤكد والمسلم به إن اللغة العربية الفصحى ما بلغت إلى ما بلغت إليه إلا بعد عصور من التطور، تخللها لقاءات وتنقلات ورحلات، ورحلة الشتاء والصيف أكبر شاهد على ذلك.

وكان جوابي على استغرابه وجود آداب مدونة من شعر ونثر عند اليونان والمصريين والفرس الأمر الذي لا وجود له عند العرب، أنه بالنظر في وضع الجزيرة إبان العصر الجاهلي وما ضربه حوها الرومان من حصار اقتصادي شديد منع من دخول أداة الكتابة الهامة في ذلك العهد وهو ورق البردي الذي كان شائعاً ومتداولاً عند المصريين والفرس واليونان والرومان، ندرك

لماذا لم يترك لنا العرب مستنداً أدبياً مادياً واحداً، وبالنظر إلى هذا المانع وإلى كلف العرب بأدبهم حتى حفظوه في صدورهم يزول كل استغراب، وفي اعتقادي أن هذه المادة الهامة وهي ورق (البردي) لو كانت في متناول أيدي العرب قبل الإسلام لكان بين أيدينا من شعرهم ونثرهم وتاريخهم الشيء الكثير.